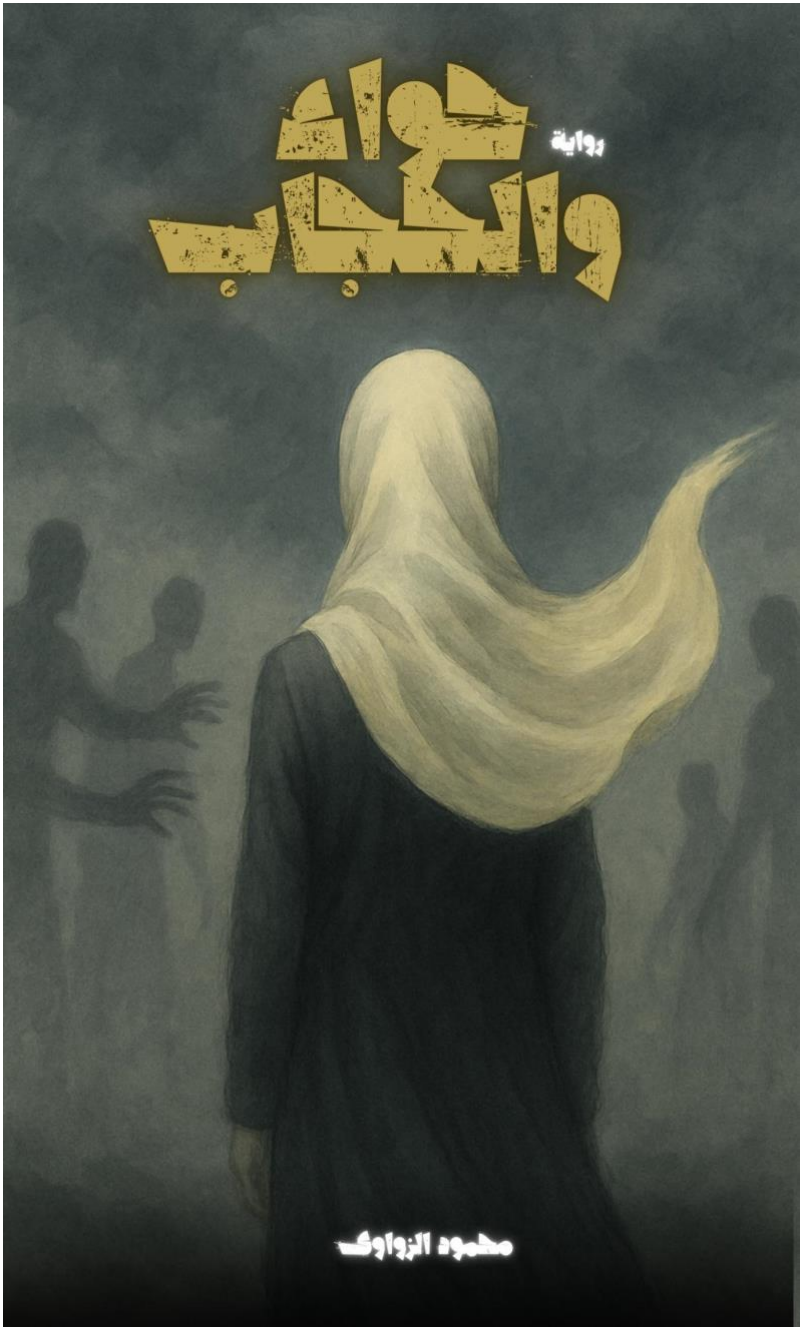
رواية
حواء والحجاب
محمود الزواوي

تأليف

الكاتب/ محمود مصطفى عبد المجيد الزواوي ..

.

.

.

.

.

كتاب/ حواء والحجاب..

اهداء

إلى كل رجل وامرأة ما زال الحياء سيدهم.

المقدمة..

كثيراً منا يكره المقدمات، وقليلاً جداً من يقرأها. وأنا لن أكذب، أنا من ذلك الصنف الذي يكرهها، بل أبغضها أشد البغض. ليس لأنها مملة وتجعلني أشعر بالنعاس، بل لأن الجميع يكرهها، ففعلت مثلهم وآمنت بذلك حتى صدّقت كرهي لها...

هل تسمع بعينيك ؟؟؟؟؟؟

إذاً اسمعني.....

البداية..

اسمي شهد محفوظ، في العشرين من عمرى أسكن بين جدران الواقع بينما أطارد أحلامًا لا يراها الناس إلا في قصص الخيال وأؤمن أن المستحيل ليس إلا فكرة لم تلقَ من يتحداها، وكل قيدٍ خُلق ليُكسر.

وأعشق الفلسفة حتى الهوس فأتنفس الأسئلة، وأجد في الجدل متعة لا يعرفها إلا من اعتاد أن يُفكر بصوتٍ عالٍ .

يراني من حولي غريبة الأطوار، أغرّد خارج السرب وأقول ما لا يُقال، وأتجرأ على كل ما يعتبره الناس ثوابت.

فلقد استحوذ الفكر العلماني على روحي رويدًا رويدًا، فاهتزّت بداخلي المسلّمات، وتراجعت شعائر الدين إلى ركنٍ بعيد مُظلم لا تبلغه شمس الإيمان فلا صلاة ولا حجاب ولا التزام. حتى اننى لم اعد اعترف بديانات.

لكنن لم أقطع الحبل بعد.

فقد كنت أمسك بخيط رفيع بالكاد يُرى، لكنه حيّ، نابض.

لم أجرؤ يومًا على إعلان القطيعة، وكأن هناك شيئًا في داخلي يصرخ أن لا خلاص إلا بالضوء حتى لو لم أعد أعرف طريقه.

صديقاتي الملحدات كنّ يضحكن ساخرات:

- أنتِ مثلنا، لا تصلين، لا تتحجبين، لا تؤمنين، فلمَ تصرين على التمسك بشيء لا تمارسينه؟

كنت أصمت. لا عن اقتناع بل عن عجز.

فهناك شيء بداخلي شيء لم أفهمه بعد.

شيء يرفض أن يُطفئ النور تمامًا.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

(حواء والحجاب)

في يوم من الايام حدث معي مالم اتوقعه .

كان يوم مثل اي يوم كُنت اهم للخروج من منزلي كأيِّ يومٍ عادي، زينتُ وجهي بتلك اللمسات البسيطة، وصنعتُ تسريحةً جديدة، وارتديتُ ثوبًا يشبه ما ترتديه صديقاتي.

لم يكن عاريًا تمامًا كملابسهن، لكنه حمل بعضًا مما يُثير الانتباه.

وأنا أهم بالخروج، وجدتُ أمي جالسة تتناول فطورها.

اقتربت منها وقبّلت جبينها، فابتسمت وقالت:

– اجلسي بجواري وتناولي طعامك.

أجبتها بثقة:

– لستُ جائعة يا أمي.

قالت برفق مشوبٍ بالقلق:

– ولكنك ستجوعين لاحقًا انظري إلى حالك، لن تعودي قبل الرابعة.

طمأنتها:

– سأتناول شيئًا في طريقي يا أمي فلا تقلقي، أنا ذاهبة الآن.

قالت وهي تبتسم:

– وفقكِ الله يا حبيبتي.

لكن ما إن تقدّمت نحو الباب، حتى فوجئتُ بأخي واقفًا في طريقي.

قلت له بلطف:

– صباح الخير، كيف حالك يا أخي؟

فما كان منه إلا أن رمقني بنظرةٍ ممتلئة بالاشمئزاز، ثم صرخ:

– هل أنتِ ذاهبة إلى الجامعة أم إلى ملهى ليلي؟

تفاجأت برده وقلت بانزعاج:

– ماذا تقصد؟

قال بحدة:

– أنظري إلى نفسك !! هل هذه ملابس فتاة محتشمة ؟

ثم التفت نحو أمي، وبدأ يوبّخها:

– أنتِ لم تُربيها يا أمي لم أسمع منكى يومًا كلمةً واحدة تردعها عما تفعله!

أمي، كما تفعل دائمًا وقفت إلى جانبي، وقالت بغضب:

– اترك أختك وشأنها، ولا تتصنّع علينا دور الرجل!

ثار أخي، ورأيت عروقه تنتفض من شدّة الغضب، حتى ظننتُ أنه قد يضربنيّ.

لكن مادامت أمي معي، لا أحد يستطيع إيذائي فمنذ وفاة أبي، وأخي يحاول أن يفرض وصايته علينا، لكن أمي دومًا تقف له بالمرصاد، تحميني بصدرها الواسع.

نظرتُ إليها، فابتسمت وقالت برقة:

– اذهبي يا حبيبتي حتى لا تفوتكِ محاضرتك الأولى.

توجّهتُ إلى الطريق بخطى خفيفة، أشعر كأنني خرجتُ للتو من قفصٍ ضيّق، كأنني أتنفّس لأول مرة دون أن يُراقبني أحد أو يأمرني أحد.

كنت أتحرك بحيوية غريبة، وكأن النسيم نفسه يهمس لي:

أنتِ حرة الآن.

سرتُ قليلًا حتى وصلت إلى منزل صديقتي رودينة. طرقت الباب ففتحت أمّها، فقلت بلطف:

– كيف حالكِ يا خالتي؟

ابتسمت وقالت:

– بخير يا شهد تفضّلي رودينة تنتظرك في غرفتها.

دخلتُ إلى غرفتها فوجدتها أمام المرآة، تضع مساحيق التجميل بعناية. كانت ترتدي ملابس قصيرة تكشف أجزاءً من جسدها دون خجل.

التفتت إليّ وقالت:

– ما هذا المكياج الخفيف؟

لم أفهم مقصدها في البداية، فقلتُ مترددة:

– هل يبدو سيئًا؟

ضحكت وقالت:

– لا، لكنه خفيف جدًا، لن ينجذب إليكِ أحد هكذا فلا رجل يلتفت لامرأة لا تهتم بمظهرها.

أجبتها بعفوية دون تفكير:

– أنا لا أريد أن أجذب الرجال، فقط أريد أن أُظهر جمالي، حتى لو كان بسيطًا. من داخلي كنت اكذب عليها بالقول والفعل فإني كنتُ اريد ان اجذبه هو .

فجأة إليّ بتعجب ثم نهضت واقتربت، ووضعت لي أحمر شفاه بلونٍ صارخ وقالت:

– والآن ها قد اكتمل الجمال!

خرجنا معًا، وسمعتها تطلب من والدها مبلغًا كبيرًا من المال، فأعطاها إياه دون تردد وهو يبتسم ويقول:

– ما هذا الجمال أخشى أن تصيبكِ العين يا ابنتي.

ابتسمتُ من كلامه مع ابنته ولكن في داخلي تمنيت تمنيت لو كان أخي مثل والد رودينة، حنونًا يتحدّث برفق ولا يحمل سيف الحكم في يده، ولا يرى فيّ إلا خطأً ينبغي تقويمه.

ركبنا المصعد وكانت رودينة واقفة أمام المرآة الجانبية، تتأمّل وجهها بانبهارٍ واضح، تمرر أناملها على وجنتيها بشيءٍ من الزهو.

ابتسمتُ لها، ووجدت نفسي أقلّدها دون وعي، كأننا نبحث عن الجمال في أعين أنفسنا، لا في أعين الآخرين.

عندما نزلنا إلى الشارع مرّ رجل أمامنا، يضحك بطريقةٍ غريبة، ثم اقترب فجأة وبدأ يتمتم بكلمات أقرب إلى الوقاحة منها إلى الشعر:

– أرى القمر بعيني صُبحًا، فيخونني قلبي لإمساكه، أريد قُبلة، أو همسة، أو رقمًا... يداوي جراحي!

تدانى نحونا خطوة فصرختُ فيه:

– ارحل أيها الأحمق قبل أن أُعرّفك حجمك الحقيقي!

ارتفعت نبرتي، وبدأ المارة يلتفتون إلينا، فتراجع الرجل وقد علاه الخجل، وانسحب كمن أُطفئت فيه النيران.

التفتُّ إلى رودينة،و ما زال الغضب في صدري مشتعلًا وقلت:

– ما الذي يدفع رجلاً لفعل ذلك؟ إنه مقزّز ولا يرى في المرأة إلا جسدًا يسير شهواته.

ضحكت رودينة وقالت بهدوء:

– استمتعي فحسب .

لا أنكر أنني شعرت بشيءٍ عجيب حين اقترب ولم افهم كلامها لكن الغريب أني رأيته منذ دقائق يمر بجوار امرأة محجبة ولم يرفع نظره نحوها.

أردت أن أفتح معها حديثًا حول ذلك، أن أفهم، أو ربما أُفهمها. لكنها سبقتني بردها على سؤالى:

– لأنها قبيحة ولهذا تجاهلها فلا تنخدعي بتلك الخيمة التي ترتديها! امرأة ناقصة عقل، تتبع تقاليدًا بالية دفنت المرأة في أعماق التراب !

تجمّدتُ للحظة. شيءٌ ما انكسر داخلي. لا أعلم لماذا، لكن كلماتها أصابتني في مكانٍ لم أكن أعلم أنه ما زال حيًّا.

فجأة، رفعتُ يدي وناديتُ على تاكسي، وصعدنا، دون أن أنطق بكلمة. نظرتُ من النافذة، وكانت المدينة تمرّ أمامي كأنها غريبة عني كأنني أراها لأول مرة.

قلتُ للسائق بهدوء:

– إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة.

هزّ رأسه وانطلق. وبعد نحو نصف ساعة، كنا قد وصلنا إلى بوابة الجامعة التي اعتدنا المرور من تحتها كأننا نعبر نحو عالمٍ موازٍ، تحكمه الكتب، وتُحدّث فيه الوجوه عن أحلام معلّقة.

كنت أدرس في قسم الفلسفة، بينما كانت رودينة، صديقتي الأقرب، تنتمي إلى كلية الإعلام، حيث الأصوات المرتفعة، والنقاشات اللامعة، والوجوه التي لا تنطفئ.

أما هذا الصباح، فقد كانت محاضرتي الأولى مع الدكتورة نرمين الصايغ، أستاذة مادة فلسفة الأديان.

قالت رودينة، وهي تتأمل هاتفها:

– أولى محاضراتي تبدأ عند الثانية عشرة، لذا سأنتظر في الكافيتريا قليلاً.

نظرتُ إليها برجاءٍ خافت:

– تعالي نحضر المحاضرة سويًا، لن تطول فأنتي تعلمين أن الدكتورة نرمين لا تُكمل الساعة غالبًا، ومن ثم نذهب الى الكافتريا .

ترددت رودينة، فتابعتُ بنبرةٍ أكثر حدة:

– لا يهمني ما تقول تلك الدكتورة كلماتها دائمًا محمّلة بتلميحات خفية، كأنها تهمس بأن المرأة ظلٌّ للرجل، لا كيان له وحده.

لا تُصرّح بذلك، ولكن بين كل فكرة دينية وأخرى، كانت تزرع المعنى ذاته، وتبتسم كأنها تفهم ما نجهله.

وافقت رودينة في النهاية، ليس لأن المحاضرة أغرتها، بل لأنها كرهت أن تبقى وحيدة. وربما... أرادت أن ترى بعينيها تلك المرأة التي كنتُ لا أتوقف عن الحديث عنها بسخطٍ مكتوم.

دخل الجميع إلى المدرج الكبير، وجلسوا في مقاعدهم كأنهم جنود في ساحة تدريب لا يعلمون إن كانوا ذاهبين لحرب أم لنجاة. بعد دقائق دخلت الدكتورة نرمين الصايغ، تلك التي يصفها الجميع باللطف، لكنها في نظري لم تكن يومًا لطيفة، بل متقنة في تزييف ملامحها، خبيرة في إخفاء ما تخفيه كلماتها.

لم أحبّ تلك الكلية يومًا. أردت أن أكون طالبة إعلام، كصديقتي رودينة، حيث تُصاغ الحروف على الألسنة لا في الكتب لا انكر اننى اعشق الفلسفة ولكن ما فائدة الراى ان لم اعبر عنه بالسان .

لكن والدي لم يمنحني الاختيار. لم أرد قول ذلك فأنا فلذة كبد أبيها هكذا كانت أمي تقول ومع ذلك، تمنيتُ لو أنّ رحيله سبق دخولي هذه الكلية لا تبعه.

بدأت الدكتورة حديثها المعتاد، ثرثرة فكرية أعرف مسارها مسبقًا تهميشٌ صامت للمرأة، وأفكار تلبس ثوب الدين كي تحاصر عقولنا.

لكنّ شيئًا ما تغيّر في تلك اللحظة.

سؤال طرحته بصوتها الرصين اخترقني دون استئذان:

_هل كانت حواء محجبة؟

كم مرة سمعتُ هذا التساؤل من رودينة وغيرها؟

لو كان الحجاب فرضًا، لفرضه الله على حواء منذ الخلق هكذا كانوا يرددون.

رفعت رأسي نحو الدكتورة. نظرت إليها بعينين مفتوحتين، كأنني أراها لأول مرة.

كلماتها تغلغلت في داخلي، لا لأني صدّقتها، بل لأني أردت أن أفهم.

نظرت إليّ رودينة هامسة باستغراب:

– ما بكِ؟ لم تكوني تهتمّين بهذا الهراء أركى تغيّرين رأيك.

قلت بهدوء:

– لا، لم يتغير شيء. فقط أريد أن أستمع.

تركتني رودينة لاهتمامي الجديد، بينما تابعتُ صوت الدكتورة الذي اخترق صمتي:

_نعم، كانت حواء محجبة لكن لا كما نظنّ. فقد اختلف شكل الحجاب بنزول الشرائع، لكنه كان دائمًا هناك في اليهودية فى المسحية ثم فى الإسلام .

ومع ان الكتب السماويه قد تم تحريفها ،إلا ان هناك ادلة تدل على الحجاب فيها وكما تعلمون انا لا احب ان ادعم محاضرتي بادله من كتب محرفه ، ولكن لي أُظهر لكم ان الحجاب كان وسيكون . سأستدل من تلك الكتب وسأكتفى بدليل من كل شريعة .

التواره فى سفر العدد الفصل الخامس .

(ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة...

(العدد 5:18)

وهذا يدل على ان المرأة اليهوديه كانت تغطى رأسها عادةً لأن كشف الرأس جاء كفعلٍ استثنائي له دلالة توبيخية، ما يعني أن تغطية الرأس هو الوضع الطبيعي للمرأة المتزوجة.

اما في المسيحية

رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس – الإصحاح 11

لأن المرأة إن كانت لا تتغطى، فليُقص شعرها أيضًا. وإن كان قبيحًا بالمرأة أن تُقص أو تُحلق، فلتتغط.

(كورنثوس الأولى 11:6)

ثم في الإسلام.

سورة النور الآية 31

وقل للمؤمنات يغضُضنَ من أبصارِهِنَّ ويحفظْنَ فروجَهُنَّ، ولا يُبدين زينتَهُنَّ إلا ما ظهر منها، وليَضرِبنَ بخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ...

ولن اتكلم على تفسير الآيه الكريمه ، فلقد تحدثنا فيها من قبل .

فجأة قاطعت رودينه تركيزى وهمست مجددًا بنبرة ازدراء:

– معكى حق ،بالفعل إنها تهذي .

لكنني لم أجب. لم أرد خوض نقاش. كنت فقط. أريد أن أستمع.

تابعت الدكتورة نرمين حديثها، بصوت لا يخلو من هدوء العارف الواثق :

_وقبل ان يظهر الحجاب فى تلك الشرائع حواء كانت محجبة؛

لكن حجابها لم يكن قطعة تُعقد على الرأس، بل كان شيئًا أعمق.

كان حجابها نابعًا من فطرتها، من نقاء الطاعة، من ستر القلب قبل الجسد.

حين كانت في الجنة، هي وآدم عليه السلام، لم تكن ترى سوءتها، لم يكن جسدها مرئيًا إلا بنقاء الطاعة لله.

لكن حين وسوس لهما الشيطان وأكلا من الشجرة، عصيانا لا جهلاً، انكشف الغطاء، وبدت لهما سوءاتهما.

تلت الآية بصوت مائل للخشوع:

"فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ" (الأعراف: 22).

ثم أردفت:

_بدأا يجمعان أوراق الجنة، يخصفانها ليسترا جسديهما، لأن الستر كان فطريًا.

الحجاب الحقيقي بدأ من هنا لم يكن كبتًا، بل غريزة فُطر الإنسان عليها.

والخلاعة، على النقيض، ليست مجرد مخالفة شرعية، بل انحراف عن أصل الفطرة.

الحجاب تطور ....نعم ...مع الشرائع، لكن أصله لم يتبدل.

ثم تابعت بهدوء:

حواء تحجبت حجابًا يليق بالزمن الذي خُلقت فيه فلم يكن معها إلا آدم، زوجها، وأبناؤها، محارمها. لذلك لم تُخاطَب بحجاب الرأس كما نفهمه اليوم او ربما خاطبت لكن لم يذكر القران شيء من هذا او دل عليه دليل فلذالك نتحدث عما ذكر .

وهو حجابها الذى كان في الستر، في الحياء، في التزام القلب بالعهد الإلهي.

و فجأة صدمتُ من ارتفاع صوت رودينة وهى تقول:

_لو كان الحجاب فرضًا كما تقولين، فلمَ لم تتحجب حواء بالحجاب الذي نعرفه اليوم؟

على الأقل... تتحجب من إبليس! أو من الملائكة؟

أو على الاقل يتحجب آدم فلما تتحدثين عن حواء وحدها !! أنا لا أقتنع بكلامك. كنتُ أستمع فقط لأفهم، لكنّي أرى فيه تناقضًا.

سادت لحظة صمت بين الدكتورة والطلاب، وأنا شعرتُ أن أنفاسي توقفت للحظة...

هل سترد؟

هل ستصمت؟

هل ستغضب؟

وفجأة...

ارتسمت على وجه الدكتورة ابتسامة غريبة، لا تحمل تهكّمًا بقدر ما تعكس ثقة مفرطة، وشيئًا من الاستخفاف بما سمعته.

ثم بدأت تتحرك بين المقاعد بخُطى واثقة، ورفعت صوتها قليلًا حتى عمّ المدرج:

سؤالٌ في محلّه، نعم ، لكنه لا يخرج إلا من جاهلٍ متعصّبٍ قرر أن يخالف فحسب!

ثم توقفت، وأكملت بنبرة حاسمة:

_إبليس؟ كان عدوًا لهما، لا ضيفًا حتى تُلزَم حواء بالحجاب أمامه!

ثم استدارت ناحيتنا وقالت:

_أما الملائكة... فأنّى يكون فيهم شهوة أو رغبة؟ و هم لا يتكاثرون،و لا يُفتنون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون فكيف تتحجب منهم .

ثم انكى لم تلتزمى الأدب فى حديثك عن نبي الله آدم عليه وهذا يدل على تعصبك وجهلك .ولو انكى انتظرتى لى اكمل الدرس لفهمتى ان حواء كما تحجبت فإن آدم عليه السلام تحجب كذالك.

بدأ الجميع يهمهم فيما بينهم ، حتى رفعت الدكتورة يدها فصمت الجميع ..

واستقرّت نظراتنا على وجه رودينة، التي خفضت عينيها، وراحت تعبث بخصلات شعرها بحركة مملة، امتزج فيها الملل بالضيق.

أما أنا...

فابتسمت، نصف ابتسامة.

لم أعلم وقتها، هل اقتنعت؟

هل تسلّلت كلماتها إلى قلبي خفية؟

لكنني تمسكت بيقيني كما يتمسك الغريق بخشبة وحيدة.

فقد قلت لنفسي:

_هراء كلّه هراء. لكن هذا لم يمنع فضولى ان أعلم كيف تحجب آدم.

توقفت الدكتورة قليلًا ثم قالت:

ما أريده أن تتعلموه اليوم أن الفطرة هي من تحثّنا على الحجاب قبل أن يأتي الشرع ليأمر به.

حواء وآدم عليهما السلام، حين انكشفت سوآتهما، كان أول رد فعل لهما أن يسترا نفسيهما لم يُلقنهما أحد، لم يخبرهما أحد، ولكنه الحياء المغروس في أصل الفطرة هو من اخبرهم كان حجابهم .

ثم ابتسمت وهي تضيف:

وبالمناسبة، كما فُرض الحجاب على المرأة في الإسلام، فقد فُرض أيضًا على الرجل، ولكن بما يناسب طبيعته وتكوينه.

فعورة الرجل ما بين السُّرّة والركبة، ويجب عليه أن يسترها بلباس لا يشفّ ولا يصف، ولا يجوز له أن يلبس ما يُبرز أو يُشير إلى مواضع الشهوة.

أما المرأة، فعورتها أمام الأجانب هي جميع جسدها ما عدا الوجه والكفين، وهذا الستر لا يقتصر على مجرد التغطية، بل يجب أن يكون الثوب ساترًا، فضفاضًا، غير لافت، ولا يشفّ أو يصف.

الحجاب في حقيقته هو سترٌ للعورة، وصيانةٌ للكرامة، وشَعر المرأة داخل في هذا المفهوم، إذ هو من عوراتها التي لا يجوز كشفها.

فكما أن العفّة ليست حكرًا على المرأة، فإن الحياء والستر ليسا واجبين عليها وحدها، بل هما فريضة على كل مؤمن ومؤمنة، في القول واللباس والسلوك.

فهل علمتى الآن ان سيدنا آدم كان محجبًا بفطرته.

ابتلعت رودينه ريقها، وتلوَّن وجهها بلون الخجل المكتوم، كأن الدم قد صعد فجأة من أعماق قلبها إلى وجنتيها. رمشت بعينيها مرتين، ثم خفضت بصرها وكأن الحرج قد أطبق على أنفاسها دون أن ينطق لسانها بحرف.

لتتابع الدكتورة :

خذوا هذا المثال البسيط عن الفطرة" كان هناك طفلٌ صغير لا يتجاوز عمره عامان خرج من الحمّام عاريًا، فإذا شعر أن أحدًا يراه، ستر نفسه فورًا بكفيه مع انه لم يُعلّمه أحد، لكنها فطرة الحياء من علمته . وهذا ما حدث مع أمنا حواء.

ثم أغلقت حقيبتها، وودعتنا قائلة:

_إلى اللقاء في المحاضرة القادمة.

انتهى كل شيء في هدوء...

الجميع بدأ بالخروج، لكن الدكتورة توقفت لوهلة، وخطت نحو رودينة واقتربت منها بابتسامة خفيفة وقالت:

_أعلم أنكِ لست معنا في تلك الكلية ،و لكني سعيدة لأنك استمعتِ حتى النهاية وأتمنى أن يكون في كلامي ما نفع قلبك.

ثم مضت، وتركَتنا بأفكار لا تهدأ.

التفتُّ إلى ردينه وهمست:

_هل سمعتي تلك المحاضرة؟ هل يعني هذا أن الحجاب فَرض؟

نظرت إليّ بطريقتها اللامبالية وقالت:

_وإن كان هذه معتقدات المسلمين. أما أنا فأنتِ تعلمين من الداخل لا أؤمن بكل هذا. ثم إنكِ مثلي، لكنكِ لا تملكين الجرأة لتقوليها أمامي.

أطرقت رأسي وقلت سريعًا:

_أجل... أجل.

لا أدري لماذا قلت تلك الكلمة، رغم أنني درست مواد دينية كثيرة، وسمعت ووعيت، لكن قلبي، منذ زمن بعيد، انقطع عن كل ذلك.

كنت أذهب أحيانًا إلى ندوات ينظمها من يصفون أنفسهم بالروبيون ، وهم جزء من اللآدنيين؛ يؤمنون بالله، لكنهم لا يعترفون بالرسل أو الديانات.

يرون أن الله خلق الكون ثم تركه يسير وفقًا لقوانينه، فلا حساب، ولا عقاب، ولا حتى بعث.

عش كما تشاء، فإنك غير محاسب.

على الأقل أؤمن معهم بوجود الله، وليس كما في فكر الملحدين الذين لا يؤمنون به على الإطلاق.

استمعت لهم كثيرًا حتى بدأ تفكيري يشابه تفكيرهم، إلى حدٍ ما.

لكن رغم كل شيء، لم أجرؤ على التحرر الكامل من ديني، حتى وإن اختلّت عقيدتي في داخلي.

كان هناك شيء في داخلي، شيء أعمق، يرفض أن أستغني عن هذه الجذور، مهما حاولت.

أما رودينة، فكانت تملك تلك الجرأة التي افتقدتها.

كانت تُجاهر علنًا بأنها لا دينية، بيني وبين أصدقائنا، لكنها كانت تتردد دائمًا في إعلان ذلك في بيتها.

وأنا أعلم أن والدها لن يعترض إذا فعلت.

سيقول ببساطة كما يفعل دائمًا :

_ افعلي ما تريدين.

الآن قد خرجنا من المدرج متوجهين إلى كافتيريا الجامعة.

الشباب هناك كُثُر، يفعلون المستحيل ليوقعوا الفتيات في شباكهم.

أما أنا، فأعجبت بشخصٍ واحد فقط لكنه لا يراني، وكأنني طيفٌ شفاف يمر أمامه دون أثر.

جرّبت كثيرًا من أنواع العطور المميزة، فقط لألفت انتباهه. لكنه لم يلتفت.

جلست أنا ورديـنة على الطاولة المقابلة لطاولته. لم يحرّك حتى رأسه ناحيتي.

اسمه أحمد، عيناه عسليّتان. ليس عريض المنكبين، ولا مفتول العضلات، لكنني أعجب به كما هو.

ما يهمني أكثر هو شخصيته، ورزانة عقله.

تعمدت الى اسقاط كوب الماء من يدي...

انكسر الزجاج، والتفت الجميع. إلا هو لم يلتفت. ولم ألقَى سوى سخرية صديقتي، التي تراني "بلهاء" أتعلّق بشخصٍ لا يستحق.

ومع الحديث دخل سمير ذلك الشاب الذي لا يملّ التودّد إليّ، والذي لطالما شعرتُ أنه يهمس لرودينة من خلف ظهري، علّها تكون جسراً يسير عليه نحوي.

ألقى السلام بخفة، وابتسامة مرسومة بدقة، كأنما تدرب عليها أمام المرآة ثم قال:

_تسمحان لي بالجلوس معكما؟

رودينة رحّبت به بحماسٍ ربما لأنها كانت تعرف أنه سيدفع الفاتورة، وربما لأنها فقط تستمتع بوجوده.

جلس بيننا، وبدأ حفلة الكلام...

عن الهواء، والسماء، والشمس التي تشبه الذهب المنثور على الطرقات.

كأنني عدتُ فجأة إلى حصة التعبير في الصف الرابع.

وحين انتهى من خطبته، التفت وسأل بنبرة بريئة لا تخلو من التمثيل:

_أنا جائع... هل تأكلان معي؟

كنت جائعة فعلًا، لكنني اكتفيت بسندويتش باتيه وكوب من القهوة.

قلت بهدوء وأنا أشير إلى كوبى:

_لا، شكرًا فهذا يكفيني.

أما رودينة، فرفعت حاجبها وقالت كأنها تنتظر العرض:

أنا أريد شطيرة هامبورغر كبيرة ومعها بطاطس مقلية طبعًا.

طلبا الطعام، وجلسا يأكلان وأنا أراقبهما فقط.

هو كان يبتسم لي أحيانًا، تلك الابتسامة التي تحمل أكثر مما تقول.

ثم قال فجأة، وكأنه يقدّم عرضًا ترفيهيًا:

_ما رأيكما أن نسهر الليلة؟ نتعشى معًا، ونتجول قليلاً ستكون ليلة جميلة، ومختلفة.

عين رودينة اتسعت كأنها رأت مغامرة جديدة، وقالت على الفور:

_فكرة رائعة.

أما أنا فشعرت بالذعر يتسلل كالماء البارد في ظهري.

أخي كيف سيتصرّف إن علم؟

قلت لهم بهدوء:

_لا، آسفة لا أستطيع.

نظرت إليّ رودينة بتهكّمها المعتاد، ثم همست وهي تمطّ الشفاه:

_ما زلتي جبانة تخشين أخاكِ؟

تنهدتُ وقلت:

أنتِ تعرفين أنه سريع الغضب وأنا لا أحتمل المواجهة.

فقالت، وكأنها تحفظ هذا المقطع عن ظهر قلب:

_لا يحق له أن يمنعك. الرجل حر، والمرأة أيضًا. نحن بشر، نعيش على الأرض نفسها، لنا الحقوق نفسها. فلا أحد يملي عليكى ما تفعلين.

كنت أحب تلك العبارات.

كانت تُشعل شيئًا فى داخلي ...

حتى أنني مرة، في لحظة تجلٍ غريبة، قررت أن أُلغي كلمتي "رجل" و"امرأة" من قاموسي، وأكتفي بكلمة واحدة "بشر".

لكن الخوف.

الخوف دائمًا ما يربح في النهاية.

همست وأنا أهرب إلى داخلي:

_اتركيني على راحتي.

تدخل سمير أخيرًا، بابتسامة نصفها تهكم ونصفها استعراض:

_رودينة معها حق. أخوكِ لا يحق له أن يمنعك. لو كنا في أمريكا، لكان الان فى السجن ... فالبنات هناك يخرجن، يسهرن، ويعدن بعد الفجر، ولا أحد يجرؤ على مساءلتهن. أخوكِ للأسف، رجعي مثل كثيرين هنا.

قلت لهم فى غضب :

سأحدث أمي وأذهب معكم و الآن سأكمل محضراتى ولنذهب بعدها إلى الندوة التي تقيمها جمعية الفكر الواعى.

قالت لي رودينة:

_ حسنًا.

كلاً منا ذهب الى كليته وبعد أن انتهينا، توجهنا إلى مبنى الجمعية لنرى القاعة وقد امتلأت عن آخرها. وقفت على خشبة المسرح إحدى المقدمات، ونادت عبر الميكروفون:

_والآن، لنستمع إلى كلمة الدكتورة ندين السحاوي.

لقد رأيت بعيني تلك الدكتورة العجوز تعتلي خشبة المسرح بكل قوتها، تقترب من الميكروفون، وتتكلم، بينما الصور تعرض خلفها على الشاشة الكبيرة. قالت في بداية حديثها:

_نعم للتحرر، لا للكبت أخواتي وإخواني، نحن نُعاني جميعًا، رجالًا ونساءً. والنساء يعانين في المقدمة أكثر. لقد كنتُ أُجبر على اتباع سيرٍ معين، لا أرتدي هذا، ولا أرتدي ذاك. لا تخرجين من المنزل في هذا الوقت، لا، لا، لا! لطالما سمعت كلمة "لا" من أقرب المقربين. حتى اكتفيت. لماذا؟ لماذا أخبروني بهذا؟ لماذا كانت أمي تفضل أخي عليَ؟ لم يريدوا تعليمي، ولم يريدوا لي النجاح. كلماتهم لطالما أوقفت تفكيري. أنتى في النهاية ستتزوجين. أين هي الحرية؟ حتى الرجل ليس حرًا في معتقداته وتصرفاته. والجرائم تحيطنا من كل اتجاه قتل، سب، اغتصاب، انتهاك أعراض وأموال، وانفجارات. كل هذا بسبب شيء واحد، وهو الدين. الناس يقتلون بعضهم البعض من أجل الدين، يفعلون ما لا يفعلون، ينسون إنسانيتهم من أجل شيء هم في الأصل من وضعوه. الله لم يخلق دينًا، هم من خلقوه.

في القاعة، كان الجميع متأثرًا من حديثها، وبدأوا في التصفيق بحرارة. حتى تابعت:

إن الأحكام التي تُفرض علينا، مثل ارتداء الحجاب وحبس حرية المرأة، وعدم مساواتها مع الرجل، هي أحكام بشرية وليست إلهية. هي أحكام أرادوا من خلالها استغلالنا واستغلال الطبيعة البشرية. فعلينا أن نواجهها بكل ما أوتينا من قوة.

فجأة، وقف شخص من بين الحضور. كان رجلاً يبدو عليه النضج والحكمة. لم يخف ولم يتردد، بل اعتلى المسرح، والجميع ينظرون إليه بدهشة. حاول البعض منعه، لكنه نادى بصوت مرتفع:

_دكتورة، أريد أن أتكلم كلمة واحدة.

كانت الدكتورة مترددة للحظة، تنظر إليه بتوجّس، ثم أومأت للحراس أن يتركوه. تقدّم بخطى واثقة نحو المنصة، أخرج منديلاً من جيبه، مسح جبينه، ثم ابتسم وقال وهو يمدّ يده:

_أشكركِ يا دكتورة على سماحكِ لي بالصعود.

صافحها بلطف، ثم أمسك الميكروفون ونظر إلى الحضور، وقال بصوتٍ هادئ:

_أنا أحب الدكتورة ندين، فهي امرأة مجتهدة ومثابرة، من الرائدات اللواتي أفخر بهن.

ابتسمت الدكتورة، وتبادل معها البعض نظرات إعجاب وارتياح. تابع حديثه بنبرة أكثر دفئًا:

_ لقد نشأتُ على مقالاتها وكتبها منذ بدأت القراءة. هي امرأة هزّت كيان النساء لتفيقهن من غفوة طويلة.

همهمت القاعة إعجابًا، وبدا أن الجميع يستمتع بكلماته، إلى أن أردف:

_ولكن لديّ بعض التحفظات على ما تطرحه.

تغيّرت ملامح وجه الدكتورة، وانكمشت ابتسامتها شيئًا فشيئًا.

_نعم، إنها تقول إن الدين هو سبب الحروب والأزمات والقتل والتعذيب وأن الله لم يخلق دينًا، بل نحن من خلقه... وأن الحل هو اللادينية، التي تعتمد على الفلسفة والعقل وحدهما، لانتشال الإنسان من معتقدات قد تهدمه وتهدم من حوله.

قالت الدكتورة، بنبرة ثابتة:

_نعم، هذا ما أؤمن به.

ابتسم الرجل، ثم غيّر نبرته إلى شيء أشدّ، أكثر حدة:

_لكن... من المعروف أن العنف في التاريخ لم يكن وليد الأديان وحدها كما تزعمين، بل كانت هناك دوافع كثيرة: سياسية، اقتصادية، سلطوية. حتى من ارتكبوا المجازر باسم الدين، كانوا غالبًا يسعون خلف مصالحهم لا خلف قداسة ما. وقليلٌ جدًا من تلك الحروب كان دفاعًا عن الشرف أو العقيدة بحق.

ارتفعت همهمات في القاعة، بعضهم معترض، وبعضهم ينتظر. تابع الرجل دون أن يعبأ بالضجيج:

_بل إن اللادينية نفسها نعم، اللادينية لعبت دورًا كبيرًا في أعنف المجازر في التاريخ الحديث.

بدأ البعض يهمهم: من هذا المجنون؟ ما الذي يقوله؟

لكنه لم يتراجع. فقط مدّ يده في جيبه ببطء،

أخرج ورقة مطوية بعناية، ورفعها عاليًا أمام الحضور، ثم قال بصوت أكثر هدوءًا وأكثر حزمًا:

_أنا لا أتكلم من فراغ. هذه دراسة موثّقة، نشرها الدكتور نفيد شيخ، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كيل البريطانية، في كتابه المهم عداد القتلى.

سكت لحظة، وكأن الصمت جزء من بيانه، ثم تابع:

_الدراسة أحصت ضحايا الحروب والمجازر منذ بداية العصر الميلادي حتى عام ٢٠٠٨. والنتائج؟ مذهلة.

الحروب التي زعمت تمثيل المسيحية اتت فى المرتبه الأولى فلقد تسببت في مقتل ما يقارب ١٧٠ مليون إنسان.

ثم تأتي الأيديولوجيات اللادينية بعدها وخصوصًا الشيوعية والمادية الجدلية الفلسفيه بنحو ١٢٠ إلى ١٥٠ مليون قتيل.

أفلا يزال البعض يزعم أن الدين هو أصل الشرور؟

ضجّت القاعة.

همسات، تصفيق، صيحات احتجاج. البعض طالب بنزوله من المنصة، والبعض الآخر صفق كأنهم وجدوا فيه لسانهم الناطق.

أما الدكتورة ندين أُجلِست على كرسي خشبي بسيط، صامتة، واجمة، ترمقه بنظرة ممتزجة بين الدهشة والارتياب.

قالت أخيرًا:

_كلامك يفضح تعصبك. أنت وأمثالك السبب في ما نحن فيه. ما ذكرته مجرد ترهات تلاعب بالأرقام لتجميل قبح الدين!

ابتسم وقال :

ترهات إذًا فلننظر إلى الترهات الحقيقية يا دكتورة.

ثم التفت إلى الشاشة خلفه، ولوّح بيده لتبدأ الصور في الظهور واحدة تلو الأخرى.

الأول : جوزيف ستالين

الوظيفة: زعيم الاتحاد السوفيتي (1924–1953)

الجرائم:

التطهير العظيم": إعدامات جماعية، ونفي الملايين إلى معسكرات العمل في سيبيريا.

- **"الهولودومور": مجاعة أوكرانيا التي أودت بحياة الملايين.**

علاقة الإلحاد:

ماركسي لينيني، آمن بأن الدين "أفيون الشعوب". أغلق الكنائس، واضطهد الكهنة.

الثاني ماو تسي تونغ

الوظيفة: مؤسس الصين الشعبية (1949–1976)

الجرائم:

١-القفزة الكبرى للأمام : سياسة تسببت في وفاة أكثر من ٤٥ مليون شخص.

٢-الثورة الثقافية : قتل رجال الدين، هدم المعابد.

علاقة الإلحاد:

سَخِر من الأديان، وبدّلها بعبادة شخصه و حوّل المعابد إلى زرائب

الثالث بول بوت

الوظيفة: زعيم الخمير الحمر بكمبوديا (1975–1979)

الجرائم:

1-إبادة جماعية راح ضحيتها نحو ٢ مليون إنسان.

2-قتل كل من يرتدي نظارة، أو يُشتبه في "ثقافته".

علاقة الإلحاد:

ألغى الدين تمامًا. و أعدم رجال الدين بلا استثناء.

الرابع :كيم إيل سونغ وعائلته

الوظيفة: مؤسس كوريا الشمالية (1948–1994)

الجرائم:

_نظام قمعي، مجاعات، إعدامات علنية.

علاقة الإلحاد:

تبنّى فكر "جوتشي" الذي يمجّد القائد بدلًا من الإله. اضطهد الأديان، وخصوصًا المسيحية.

الخامس: فلاديمير لينين

الوظيفة: مؤسس الاتحاد السوفيتي (1917–1924)

الجرائم:

١-أول من بدأ المذابح ضد رجال الدين.

٢-أغلق الكنائس، أطلق حملات دعائية ضد الإيمان.

علاقة الإلحاد:

أسّس رابطة الملاحدة المحاربين لترويج الإلحاد وطمس الدين من المجتمع.

السادس أدولف هتلر

الوظيفة: زعيم ألمانيا النازية (1933–1945)

الجرائم:

١-الهولوكوست: إبادة 6 ملايين يهودي.

٢الحرب العالمية الثانية: نحو 60 مليون قتيل.

علاقة الإلحاد:

رغم استغلاله السياسي للمسيحية، إلا أنه في كفاحي" أبدى ازدراءً للدين.

النازية مجّدت القوة والعرق، لا الإيمان أو الأخلاق.

ثم قال الرجل بنبرة بطيئة، كأنه يغرس كل كلمة في الضمائر:

المشكلة ليست في الدين، بل في من يستخدمه أو يلغيه ليُبرّر القتل.

الدين بريء من دماء البشر. الإلحاد أيضًا ليس معصومًا. لكن حين تصبّون كل لعناتكم على الدين فقط، فأنتم لا تبحثون عن الحقيقة أنتم

تهربون منها.

أردف، كأنه يُغلق الدائرة التي فتحتها الدكتورة بكلمة ترهات:

واشخاص غير الذي تم عرضهم مئات، بل آلاف، من الطغاة والقتلة الذين لم يتخذوا من الدين مبررًا، بل دعموا أفكارًا تُشبه ما تنادين به الآن أفكارًا ترى الإنسان حيوانًا متطورًا بلا روح، بلا غاية، بلا حلال وحرام.

ثم اقترب من مقدّمة المنصة، وخفض صوته قليلًا، حتى بدا كأنما يُحدّث ضميرًا أكثر من كونه يُخاطب جمهورًا:

_أما الدين، فلطالما كان كابحًا للدم، لا دافعًا له.

دينٌ مثل الإسلام، الذي قال: ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.

وقال: ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق.

دينٌ وضع حدودًا للسرقة، للزنا، للنهب، وللإرهاب... وأنتِ تصفين كل هذا بأنه سبب المجازر؟!

لو تُركت الأرض بلا دين، لاحترقت منذ قرون الدين، يا دكتورة، ليس كبتًا، بل تهذيب.

ليس قيدًا، بل ميزانًا، يعيد للناس إنسانيتهم كلما أوشكت على الضياع.

ثم استدار نحو الشاشة، لكنها كانت قد خَفتت. كأن ما سيقوله الآن لا يحتاج عرضًا بصريًا، بل وعيًا داخليًا.

تقولين إن الله موجود لكنه لم يُنزّل دينًا؟

لكن وجود الله، إن ثبت، يقتضي الغاية.

توقّف، ثم قال :

لا أحد يخلق شيئًا بلا غاية. المهندس يبني بيتًا ليُسكن، الطبيب يعالج ليشفي، حتى الطفل يرسم خطًا لأنه يريد أن يُعبّر.

فهل يُعقل أن يكون الخالق خالق هذا الإنسان المركّب روحًا وعقلًا وشوقًا قد خلقه عبثًا؟!

ثم رفع الورقة التي كانت لا تزال بين يديه، ولوّح بها كأنها شاهدٌ أخير:

_ الدين هو الجواب على السؤال الذي لم تقدّمي له بديلاً:

_لماذا خُلقت؟ وماذا يريد مني خالقي؟

فإن وُجد خالقٌ حكيم، فلا بد أنه أوصل إلينا طريقةً نعرف بها ما يريد وهذه هي رسالة الدين. لا ليتسلّط، بل ليهدي.

ثم نظر إليها، ونبرته هدأت لكنها لم تفقد يقينها:

_الدين لا يخيفنا، بل يمنحنا معنى.

الدين لا يبرّر القتل بل يُعاقب عليه.

الدين لا يُقيد العقول بل يحرّرها من العدمية والعبث.

ثم تنفّس بعمق، كأن الكلمات التي سيقولها الآن ليست حُججًا، بل خلاصًا.

– فإن الدين يا دكتورة وأحكامه وما وُضع من شريعة لم يكن عبثًا ولا قيدًا، بل صُمّم ليكون صمّام أمان للبشر من أنفسهم، من شهواتهم، من جنونهم حين لا رادع لهم.

نظر نحو القاعة لحظة، ثم عاد ببصره نحوها مباشرة :

– وسلامٌ عليكم...

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وأشهد أنني مسلم، دينًا وعقلًا ووعيًا غير معترف بمعتقدٍ بُني على جهل، وغريزة، وأوهام زرعها فيكم الشيطان فأضلكم عن السبيل.

ثم رفع يده قليلًا وقال:

– وأسأل الله أن يهديكم، أن يُنير بصائركم، وأن يُريني وإياكم الحق حقًا فنَتبعه، والباطل باطلًا فنَجتنبه.

ثم سكت، ولم يصفق أحد.

لكن في القاعة، كان هناك شيء يتغير.

صمتٌ كثيف، يحمل في داخله أسئلة، وندمًا، وشيئًا يشبه الرجاء

لتقول الدكتورة ندين :

_أنت مسلم، إذًا أخبرني، لماذا جعل الإسلام المرأة أقل من الرجل؟ لماذا نحن في الميراث لا نساويكم؟ لماذا حُكم علينا بالحجاب؟ لماذا يُسمح لكم بتعدد الزوجات بينما نحن محصورات في واحد؟ لماذا لا يُسمح لنا بالتعلم والعمل كما الرجال؟ أين العدل في هذا؟ هل هذا ما يرضي الله . الله لا يرضى بهذا لا يرضى بدين كهذا

اجابها وهو يضع يده على ذقنه:

_تقولين أن الدين يحرم المرأة من حقوقها، وتصفين الإسلام بالاستهتار. إذا كنتِ تعرفين تاريخ الجاهلية، لعرفتِ كيف كانت المرأة تُدفن حيّة لمجرد كونها أنثى.

فأنزل الله في كتابه: وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت (التكوير 9).

قبل الإسلام كانت النساء لا تُورّث، ولا يُسمح لهن بالحق في الإرث، وكان الرجل هو المالك، يقرر عنهن كل شيء.

لكن الإسلام جاء ليعترف بحق المرأة في الإرث، ويُعيد لها إنسانيتها، ويُعطيها حق الحياة.

ألم تعلمي أن في الجاهلية كان الرجل يتزوج العشرات، بينما كانت المرأة تُجبر على الزوج الذي يُختار لها؟ أما الآن، فالإسلام حرم الإجبار على الزواج، وقال رسول الله: لا تُنكح الأيم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن (البخاري).

ثم رفع إصبعه تجاهها ليكمل:

_الإسلام منح المرأة حقوقًا عظيمة في الحياة. الحق في اختيار الزوج، الحق في الطلاق، الحق في التعليم والعمل. السيده خديجة بنت خويل كانت تاجرة عظيمة وزوجة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكانت نموذجًا للمرأة المسلمة صاحبة الكرامة والقدرة على التجارة والعمل؟

ألم تعلمي أن الاسلام حث على العلم ولس كما تقولين فقد قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ألم يكن أول من آمن بالنبي امرأة؟

الإسلام جعل المرأة مساوية للرجل في الحقوق الإنسانية الأساسية، فقال الله في كتابه: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى (الحجرات 13).

ثم أردف وهو ينظر في عيون الحضور :

_ولنتحدث عن بر الوالدين. هل تعلمون أن الإسلام قد حثّ على بر الأم بشكل خاص؟ قال رسول الله:

_أمك ثم أمك ثم أمك، ثم أباك (البخاري).

الإسلام جعل للأم مكانة لم تكن لها قبل ذلك، وأعطاها حقوقًا لم تكن لتحلم بها في الجاهلية.

ثم التفت إلى الدكتورة، وهو يواصل حديثه بصوت ثابت لا يهتز:

_المرأة قبل الإسلام كانت تُعامل كسلعة، ككائن مهمل. لكن الإسلام هو الذي منحها الكرامة والعزة، وجعلها إنسانًا متساويًا مع الرجل في حقوقه، وأعطاها القدرة على العطاء والاختيار، وكل هذا بعد أن كانت تُعامل كأنها قطعة لا قيمة لها، تُورث وتُباع. فكيف يكون الدين الذي حفظ حقوقكم وأعزكم، هو من أضاع حقوق المرأة؟

ثم أضاف بصوت منخفض، ولكن حازم:

أين أنتم يا دعاة حقوق المرأة عندما تحاربون الدين الذي أعطاها مكانتها؟.

حينها وقفت وكأن عقلي توقّف عن التفكير.

كأنني شربتُ خمرًا أفقدني اتزاني، أو دواءً أزال عني ثقلًا لم أكن أعلم بوجوده.

لم أشعر بجسدي، فقط وجدت نفسي أقف على قدمي و أصفق بحرارة شديدة..

كأن شيئًا انفجر داخلي، وأصابني بهستيريا عارمة.

وفجأة سمعت تصفيقًا آخر يأتي من خلفي ثم الثالث، فالرابع، ثم القاعة كلها.

في تلك اللحظة، شعرت أن قلبي خفق من جديد للدين.

أدركت كم كنتُ جاهلة، مخدوعة بتتبع أعمى ومصطلحات فارغة تُغلف الكفر بثوب التنوير.

سال الدمع من عينيّ دون إرادتي...

وبينما أتنفس بعمق، لمحت تلك الدكتورة تتقدم بوجه غاضب نحو أحد المسؤولين، تتشاجر معه.

لم أسمع حديثهما، لكني فهمت من حركة يديها ونبرتها أن الرجل الذي ألقى تلك الخطبة لم يكن عضوًا في الجمعية، ولا يملك حتى بطاقة عضوية.

لقد خدع الجميع، بمساعدة مجهول حتى ذالك المجهول ساعده فى عرض تلك الصور عالشاشه الكبيره...

الدكتورة كانت غاضبه والمنظمين ايضأ كذالك لكن الجمهور لا يهتم فلقد سمعوا ما يوقظ القلب.

خرجتُ من القاعة، وصديقتي رودينه بجانبي تضحك وتقول ساخرة:

ألم تنظري إلى نفسك وأنتِ تصفقين بحرارة؟ وكأنكِ تشجعين فريق كرة لكنك اخترتِ الفريق الخطأ!

ولأول مرة، تجرأتُ أن أتكلم قلت لها بثبات:

– بل هو الفريق الحق والقول الحق. لا تنكري. أنتِ شعرتِ مثلي، أعرف ذلك.

ألم تشعري كم نحن صغار وسط هذا العالم الكبير المليء بالخزعبلات؟!

ألم تسمعي شيئًا أخيرًا لا يشبه الوهم؟ كلامه كان الحق، لا غيره.

رمقتني رودينه بعينين تشتعلان، ثم أمسكت بكتفي وهزتنى بقوه بينما تصرخ.

_أفيقي أيتها الحمقاء! ما تهذين به ليس إلا وهمًا شعارات براقة! انظري إلى الأمام! نحن من ستكون معنا السُلطة، سنجعل الرجال توابع لنا ، ثم ماذا تريدين ان تكونى مسلمه .ما هو الاسلام ماهو الدين .انتى حمقاء مثل البقية .

نظرت لها وانا اقول:

_الدين هو ان نعيش لهدف ابدى لا لهدف فانى لا يُذكر.

لا اعلم ماحدث لها لكنها شدتنى ناحيتها وقالت

: دينك هذا إن منعنى حريتى فلا اريده وإن كانت النار كما تتدعون مصير من لا يؤمن به فأنا اعلنها صراحةً انا كافرة....

دفعتُ يدها عني بعنف، وصحتُ من بين دموعي:

– لا أريدكِ صديقة لي بعد الآن...

ثم اندفعتُ مهرولة نحو الطريق، أركض لأهرب منها بل من نفسي، من تلك التي كنتها منذ لحظات.

لم ألتفت، إلا على صوت ارتطامٍ مفاجئ... وراخ.

استدرتُ بذهول، فإذا بها ملقاة في منتصف الشارع، جسدها ممزق.

ركضت نحوها، سجدتُ عند رأسها، ضممتها إلى صدري، أصرخ محطّمة:

– استيقظي لا تفعلي هذا بي! أرجوكِ يا رودينه، أرجوكِ.

كان الناس يحيطون بنا، لكني لم أرَ أحدًا كنت وحدي، غارقة في دموعٍ لا تنضب، وقلبٍ ينتحب.

نظرت إليّ بعينين مثقلتين، والدم يسيل من فمها همست:

– لا تفعلي ...

ثم رحلت.

رحلت بين يدي، بالكلمات ذاتها التي طالما خالفت بها الحق، بمكياجٍ طمس ملامحها،

وبثوبٍ لم يحمِ جسدها، وبقلبٍ لم يعرف ربه.

ماتت ولم تنطق الشهادة.

ماتت وهي لا تدري كيف ستُبعث.

ارتجف جسدي، وسألت نفسي: ماذا لو كنتُ أنا؟

هل كنت مستعدة؟ هل كنت سأقابل ربي بتلك الهيئة؟

أين كنت سأذهب؟

جاءت الإسعاف، لكنها تأخرت. غابت روحها، وبقيت صورتها لا تفارقني.

لن أتحدث عن جنازتها، ولا دموع أبيها، ولا صرخات أمها، ولا نظرات العتاب من كل من عرفها...

سأتحدث فقط عن لحظة تكفينها.

عن تلك الفتاة التي كانت تتمرد، وها هي الآن تُكفَّن بلا حول ولا قوة، تُسجّى بصمت وتُوضع في النعش دون أن تجادل أو ترفع صوتها.

أين أفكارها؟ أين قوتها؟ أين تلك التي قالت: سنقود العالم.

مرّ أسبوع على رحيلها، وأقسم أنني لم أعد كما كنت.

جددت ديني قلبي وروحي.

عدتُ إلى صلاتي. بدأت أرتدي الحجاب أثناء الصلاة، وإن كنت أخلعه خارج البيت، إلا أنني تخلّيت عن الزينة، عن المساحيق، عن الملابس الضيّقة.

لاحظ أخي التغيير، صار يحدّثني بلطف، يحيطني برعاية غريبة، كأنه يرى نورًا لم

هناك من قبل.

ثم جاءت اللحظة الفاصلة.

خرجتُ يومًا، فاعترضني رجل يعاكسني بوقاحة.

صرخت فيه بانفعال:

_اتقِ الله وغضّ بصرك، الله أمرك بذلك.

ضحك ساخرًا وقال:

أنا أُمرت أن أَغُضَّ بصري، وأنتِ أُمرتِ أن تَستتري، فإن لم تُنفّذي أمر الله في سترك، فلِمَ تطالبينني بتنفيذ أمره في بصري؟

فلا تُحمّلي غيرك وزر ما قررتِ أن تكشفيه.

رغم أنني لم أضع زينة، ولم أرتدى ما يلفت، شعرتُ بشيء ناقص بشعور بالغربة عن نفسي.

عدتُ إلى البيت، وقفتُ أمام المرآة، ولم أرَ نفسي.

عندها... اتخذت القرار وانا اتنهنه فى بكائي .

وارتديت الحجاب.

لا خوفًا، بل قناعة.

ومنذ ذلك اليوم، لم أخلعه.

بل بدأت أنادي به، وأعلّمه لغيري.

ومع دراستي، خصصت وقتًا لأتعلّم ديني كما ينبغي، لأفهمه وأدافع عنه.

تحوّلت من شابة تائهة إلى داعية.

من كانت في الظلام أصبحت تنير الطريق لغيرها.

مرت شهور وأنا على حالي، أتأرجح بين شعور جديد يشرق في قلبي، وذكريات قديمة تُطفئه كل حين.

حتى جاء ذلك اليوم الذي لم يكن في حسباني.

رن جرس المنزل، ففتح أخي الباب...

هل تصدقن من كان الطارق؟

لن تصدقوا!

لقد كان أحمد... نعم، أحمد الذي أخبرتكن يومًا أنني معجبة به.

تجمّدتُ في مكاني، وقلبي يخفق بقوة لم أشعر بها من قبل.

طلب أخي مني أن أحضر شيئًا للضيف، فدخلتُ، وأنا لا أنظر إلا إلى الأرض، من شدة حيائي.

لم أستوعب ما يحدث حتى قال لي أخي بصوت خافت، كأنما يُلقي عليّ مفاجأة العمر:

_أحمد... جاء يطلب يدكِ.

عندها، شعرت أن الأرض تميد بي، أن شيئًا كبيرًا تغير في هذا الكون الصغير الذي أعيش فيه.

كنت أظن أن أحمد لا يراني، أنه لا يلاحظني...

لكنه لم يراني إلا بعد حجابي.

كأنّ حجابي كان النور الذي أنار له الطريق إليّ.

كأنّه الكشاف الذي أضاء عينيه في الظلمة، فالتفت ناحيتي أخيرًا.

أحمد لم يكن يبحث عن فتاة تملأ وجهها بالألوان، ولا ترتدي ثيابًا ضيقة تستعرض جسدها.

كان يبحث عن زوجة صالحة عن ذات دين.

وكثير من الشباب لا ينجذب للمظهر بل للأخلاق، للتعامل، للحشمة التي تضيء قلبه قبل عينيه.

وصدقوني... ما كنت فيه من غفلة، لم أكن فيه وحدي.

أمي... أمي سامحها الله كانت شريكتي.

لم تكن تنهرني أو تنصحني، بل منحتني مطلق الحرية، ودعمتني في اختيارات لم تكن صائبة.

وأخي كان محقًا، حين لامها ولآمني.

أما رودينه، فهي كانت من أصدقاء السوء الذين كان يجب أن أحذرهم،

لكنني لم أفعل، بل سمعت لها، وثقت بها، وتركت قلبي يسير معها في طرقٍ مظلمة.

صحيح أنني من اخترت، ومن مشيت في طريق المعصية...

لكنني كنتُ أبحث عن توجيه، عن كلمة صدق، عن يد تأخذني للحق.

والآن، وبعد أن تبدّلت .

جاءني أحمد، لا لأنني تبرجت، بل لأنني تستّرت.

لأنني أخيرًا فهمت من أنا، وماذا أريد.

كنت أروي قصتي أمام جمع من الفتيات والنساء، أحكي لهم كيف كنت وكيف عدت. وكيف كان الحجاب لحظة تحول، لا مجرد قطعة قماش، بل شهادة ولاء لله.

وفجأة، رفعت إحداهن يدها، قالت بنبرة فيها بعض الشك:

_تحدّثتِ عن الحجاب، وتلك اللحظة الفاصلة في حياتك... لكن، هل فكّرتِ أن الحجاب موجود في اليهودية والمسيحية أيضًا؟ أليس هذا مجرّد تقليد اجتماعي نُقل من جيل إلى جيل، لا أكثر؟

ابتسمت، كأنني كنت أنتظر هذا السؤال...

وقلت بهدوء

جميل أنكِ قلتِ ذلك لأن وجود الحجاب في التشريعات الثلاث، يُشير إلى شيء أكبر من مجرد عادة إنه يثبت أن مصدر هذا الأمر واحد... وأن الذي أمر به في كل شريعه هو نفس الإله.

أليس هذا وحده دليل على قدسيته؟

ثم فتحت المصحف، وقلت:

قال تعالى في سورة النور:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾

تعرفن ما الخُمُر؟

إنها جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها.

ويضربن معناها يُلقين أو يُدلين، وجيوبهن هي فتحة الصدر.

هل تعلمن لماذا ذُكرت الجيوب تحديدًا؟

لأن بعض النساء في الجاهلية كنّ يغطين رؤوسهن، لكن يتركن أعناقهن وصدورهن مكشوفة. فجاء الأمر الإلهي ليشمل الرأس والعنق والصدر، لا الرأس وحده.

واسمعن ما رُوي عن السيدة عائشة رضي الله عنها، حين قالت:

لما نزلت هذه الآية عمد نساء الأنصار، فشققن مروطهن (ثيابهن)، فاختمرن بها، فخرجن كأن على رؤوسهن الغربان."

أي أنهن غطين رؤوسهن بالكامل، دليل على الفهم العملي للنص الإلهي.

ثم ذكّرتهم بحديث أسماء بنت أبي بكر، حين قال لها النبي صلى الله عليه وسلم

يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يَصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا"، وأشار إلى وجهه وكفيه.

(رواه أبو داود وصححه الألباني)

ثم قرأت من نفس السورة:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

ولا يبدين زينتهن: أي لا يُظهرن مواضع الزينة كالشعر، والرقبة، والذراعين، والساقين.

إلا ما ظهر منها : فسره جمهور العلماء بالوجه والكفين، وبعضهم قال: المقصود الزينة الظاهرة كالثياب الفضفاضة.

ثم نظرت إليهن، وقلت:

_فما رأيكنّ يا فتيات؟

أليس الوقت قد حان...

أن نختار النور بدل الزيف؟

أن نختار من نكون، لا ما يُراد لنا أن نكون؟

النـهاية

ملحوظة: اليهودية والمسيحية ليستا أديانًا مستقلّة بل هما شرائع منزّلة من عند الله في سياق الدين الواحد الذي هو الإسلام، أي الاستسلام لله وحده. وقد أحبّ الله أن يختم هذا الدين بشريعة تحمل اسمه صراحة، فكان الختام بالإسلام، دينًا وشريعةً، كاملًا ومهيمنًا على ما سبقه.

قال تعالى :

"إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"

[سورة آل عمران، 3:19]

(هل صليت على رسول الله اليوم)